حريات

المهدي بن بركة ليس نبيًا في وطنه

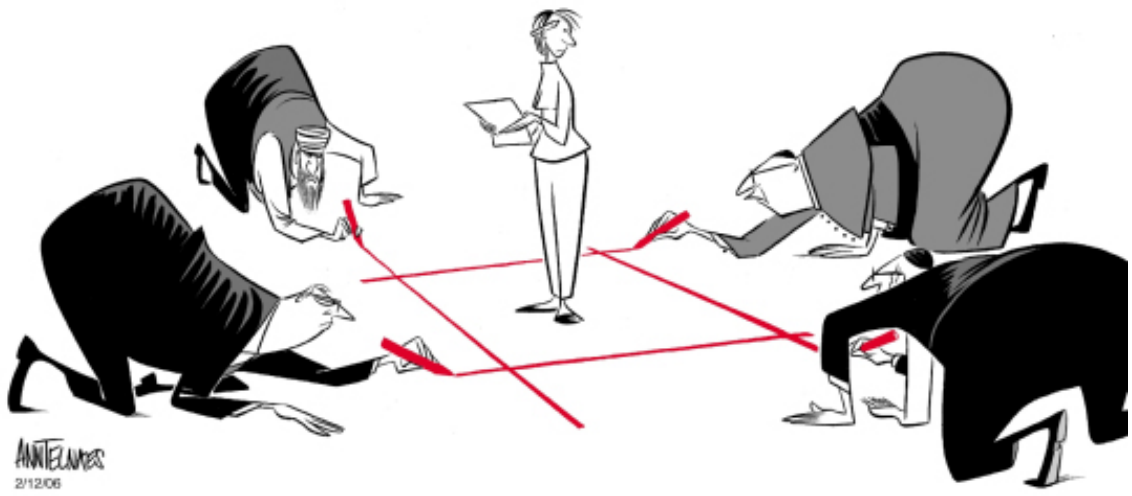

الرباط ـ **سالم الفائدة**

لم تمض أشهر على الاعتداء الجسدي على الكاتب والروائي عزيز بن حدوش في منطقة تازناخت (جنوب المغرب) بسبب روايته «جزيرة الذكور»، لنفاجأ باعتداء جديد على أحد رموز الثقافة المغربية الحديثة. يتعلق الأمر بمحاولة قتل الكاتب عبد اللطيف اللعبي (الأخبار 2015/10/24) في بيته وتعنيف زوجته أمام ناظريه. وكان الروائي المغربي شعيب حليفي قد صرح في لقاء ثقافي أقيم في مدينة سطات قبل شهر عن تعرضه لمحاولتي اعتداء فاشلتين.

تدفعنا هذه الاعتداءات الغريبة والمريبة إلى طرح أكثر من سؤال حول وضع المثقف المغربي ومكانته الاعتبارية والرمزية في ظل سياسة حكومية تضع الثقافة والتربية والتعليم ضمن آخر اهتماماتها. الحقيقة أنّ هذه الاعتداءات ليست الأولى من نوعها، فهي تضاف إلى سلسلة من الانتهاكات والسلوكيات التي تبدو في الظاهر متفرقة ومعزولة، لكنّها في الباطن مترابطة ومتصلة جوهرياً، وموجّهة بأيادٍ ترفض أن يكون للثقافة والحرية دور في قيادة هذا الوطن وانتشاله من وضعية التخلف والأمية والجهل.

قبل أيام، طالعنا بيان عن منع نشاط ثقافي كان مزمعاً تنظيمه في مدينة بنسليمان بمبادرة من «نادي القلم المغربي» حول الشهيد المهدي بن بركة ومساره النضالي والثقافي والتحرري. لم تكلف السلطة المحلية نفسها عناء تبرير أسباب المنع وحيثياته، بل اكتفت في رفضها الشفوي بتعليل مفاده أنّ وزارة الداخلية هي صاحبة القرار في ترخيص لقاءٍ من هذا القبيل، ما يعتبر مسّاً سافراً بحق من الحقوق المقدسة للشعب المغربي في التعبير عن الرأي بكل حرية. في خضم القمع والرقابة التي صارت تستعر حدتها هذه الأيام، يستمر منع الباحث المعطي منجب- المضرب حالياً عن الطعام- من السفر للمشاركة في لقاء ثقافي دولي لأسباب واهية. ألا تجسد هذه الممارسات نكوصاً وعودة إلى زمن ظنّ الجميع أنه مضى؟ يضاف إلى محنة المثقف ومنعه محن أخرى تتصل بالنشر والتوزيع والإعلام. بمَ نفسر سلوك مؤسسة ثقافية مثل «سابريس» التي صارت ترفض توزيع الكتاب المغربي من دون أن يتكفل الكاتب بالمصاريف المادية للنشر؟ وكيف نفسر التصريحات المنهجة والمتتالية لوزير التعليم العالي لحسن الداودي الذي هاجم «الأدب والأدبيين» في لقاءاته الصحافية والرسمية؟ ألا تشكل تحريضاً على الأدب وأهله أم أنها مجرد أقوال تعبر عن جهل مطلق بدور الأدب في البناء الاجتماعي والثقافي والنفسي للمجتمع؟ في سياق العبث المستشري في المجال، نتساءل حول خلفيات دعم وزارة الثقافة لعدد من الجمعيات والأصوات الفنية التي تروج للرداءة بملايين الدراهم بينما تقمع وتسجن وتمنع الأصوات الهادفة والملتزمة بقضايا الوطن والمجتمع وحريته (السنوسي /الحاقد/ مستر كريزي...)؟.

> يستمر منع الباحث المعطي منجب من السفر خارج المغرب

أمام هذا الوضع البئيس والغريب، أليس الزمن مناسباً لإعادة النظر في السياسة الثقافية لمعالجة الاختلالات الخطيرة التي صارت تنخر البنية الاجتماعية والثقافية للمغرب؟ ألا يفترض الإنصات لصوت المثقف التنويري قبل الغرق في مستنقع لا يرحم؟ ألا تحمل التصريحات التي قدمها الكاتب عبد اللطيف اللعبي بعد الاعتداء دلالات كثيرة؟ الظاهر أنّ الكره الذي تحاول أن تزرعه بعض الأقلام والأفواه المأجورة تجاه المثقف وصوته داخل المجتمع، بدأت تفقس بيوضه في ظل المناخ الإقليمي والمحلي.

لا شك في أنّ تنامي الرقابة السلطوية، المادية والنفسية، تقتضي لحظة تأمل وتفكير ومساءلة. من الواضح أنّ جسد المثقف والثقافة أصبح مستباحاً، تعبث به الأيادي الهوجاء من كل صوب (السلطة والجهل والتزمت، وضيق الأفق، والانتهازية...) إنها أمراض العصر التي تنبغي مواجهتها بشجاعة لإنقاذ الذات المجتمعية من الانحراف والضياع، وتخليصها من اليأس الذي يريد بعض من يهمهم الأمر زرعه في قلوبنا.

هذا السعي الممنهج والساذج لإقبار صوت المثقف وتهميش حضوره وتأثيره في الساحة الثقافية والسياسية وبناء جدار فصل عنصري بينه وبين المجتمع، من طرف بعض من توهموا أنهم يمسكون بزمام السلطة، يشكل تهديداً للمستقبل الثقافي الحداثي والديمقراطي للمغرب. المجتمع لا يحيا بالخبز وحده، والبطالة لا يصنعها سوى الجهل، والتقدم والرقي الحضاري لا يشيّده المجتمع من دون ثقافة وأدب وفلسفة وعلم... فلماذا يصرّ بعضهم على إلغاء عقل المجتمع ووجدانه وروحه وتاريخه الحي عبر العصور؟ أهي الرغبة في تحويل المغاربة إلى قطيع خاضع لا يفكر ولا يعارض ولا يطالب بالحرية؟ ألا تشكل الدعوة إلى إلغاء الأدب ودوره، والاعتداء الجسدي والرمزي على الثقافة وأهلها، ممارسة تنم عن رغبة بعض الجهات في تزييف الوعي الاجتماعي؟ ألا يعتبر منع نشاط عن المهدي بن بركة تكريساً للرأي الواحد المطلق وللحقيقة الواحدة حول قضيته، وطمساً للذاكرة والتاريخ الأصيل لشعب ظل يحارب منذ قرون طويلة كل أشكال الاحتواء والظلم والاستبداد؟

إننا نقف اليوم في منعرج تاريخي يفترض منا جميعاً أن نحدد اختياراتنا ومواقفنا حول السائد، لبناء مستقبل ثقافي يحقق آمال البسطاء وطموحاتهم. وهذا لا يتم من دون وعي بحقيقة الواقع الثقافي الذي نحياه ونتابع تعثراته المزمنة، لأسباب واختيارات صار أغلب المنشغلين بهموم الثقافة مدركين لمراميها وانعكاساتها السلبية على مستقبل الأجيال القادمة.

على موقعنا: بيان «نادي القلم المغربي» حول منع نشاط عن المهدي بن بركة في بنسليمان

تشكيل

«معرض الفنون» في الأونيسكو: بحثاً عن ضوء الشمس

عبيدو باشا

لا تزال «جمعية الفنانين اللبنانيين للرسم والنحت»، تتعامل مع الزمن عبر ساعة رملية، لا لأنّ أنشطتها أصغر من بيروت، المدينة الهائلة، بل لأنها تشدد على تثبيت شبكات القراءة أمام جمهور لا يزال يربط مشاغله وتاريخه بيومياته الاجتماعية. لم يصب الكسل «الجمعية» مع العديد من الأسماء بقيادتها آخرهم الياس ديب. لا يزال الرجل، في ملكة تواجده، يقيم تمريناته العملية على كل ما يؤصل حضور اللوحة في الحياة اللبنانية. آخر التمرينات ذات مفهومات وأفكار لا تخضع نفسها، للمناسبة، قدر ما تخضع نفسها للمساءلة. ذلك أنّ جمع الفنانين في «معرض الفنون البصرية السادس» في قصر الأونيسكو، سيساهم في امتلاك هؤلاء الفنانين ملكة التواجد ودفعهم إلى التحرر من أوضاع البلاد، المتكيّفة مع كل شيء، سوى الفن. كما سيسهم في التحرّر من أنفسهم، بدفعهم إلى قراءة انتاجاتهم كأشياء جامدة، لا بد من تأصيل حضورها، لا بالتشبث بها، بل بالقفز فوقها وفوق اساليبها. الأساليب لا تشكل سياقاً في العرض، في النحت والإنشاء والإبداع اللونيين. السياق مصدر إيحاء. لعل المعرض الآخر (المقبل)، ينخرط في هذا المفهوم من دون أن نعتبر أنّ فرد اللوحات، الكثيرة، غير المتشابهة، خدعة لا علاقة لها بالتاريخ، قدر ما لها علاقة بالجغرافيا.

لا تسميات ولا توصيفات مغالية. هذا صحيح. غير أن ما عُلّق على جدران قصر الأونيسكو لا يقدم في عصر العمولمة المتنامي، فوضى مرئية رنانة. هنا، الفن اللبناني المعاصر. ليس كله. بعض حضوراته الفيزيائية والروحية، بانضواء كامل في الزمن الجديد. لا تزال اللوحة اللبنانية ذات حضور. لا تزال تطرح أسئلة الهوية. وتبوح كما يبوح عاشق بمصادر إيحاءاتها. لا تزال تريد توكيد البداءة، من التوازن اللوني إلى الطبقات التحتية، وصولاً إلى الهارمونيا بين الظاهر والباطن. حلو اللوحة ومرها. حلوها ومرها، بالتفاوت، بعدم بناء لحظات اللقاء بين اللوحات. بين لوحة توضح معناها بطريقة جديدة، كما هي الحال مع لوحة الفنان حسن جوني. لوحة لا تترجم هوى الفنان، بالتعبيرية المجازية، حين تقود التعبيرية إلى كتابة طقس تشكيلي خاص. ذئاب تهاجم المدينة. لا تخلط اللوحة الواضح بغير الواضح، ما تفعله بعض اللوحات الأخرى، لأن جوني شأنه شأن بعض الفنانين الآخرين، صاحب لوحة بعيدة عن الذبذبة التشكلية، من بلوغها الواضح للانتماء الواضح. طريقتها عابرة للحدود. خلق بالمحيط، بتفكيرات العمل المعاصر. وقائع محسوسة ويومية، يدفع بها الفنان خارج الأوهام، بتقنيات الظواهر الحركية، بتجريب مستمر وبدون إيضاحات. وبين لوحة بعيدة عن الهبوب. لوحة الياس ديب، لا تتوقع ردود الفعل وهي تحشد نفسها بكافة التأويلات المعقولة. لوحة تعلّق نفسها على الريح لا على الحائط. لوحة ضد أقراص العمى. أربعة أجزاء، يُعرّف الجزء منها بالآخر (عرس...). تسخر هذه اللوحة من اللوحات التقليدية، بدون سخرية مباشرة، بإفادة كاملة من الوعي بالمسائل الجوهرية بالفنون المعاصرة.

> كل لوحة ولادة خاصة. ولادة استدراج علاقة بالحتميات الباهتة أو بالعلامات المزدوجة

كل لوحة ممارسة. كل لوحة ولادة خاصة. ولادة استدراج علاقة بالحتميات الباهتة أو بالعلامات المزدوجة. لن يُضم عمل ميشال روحانا (أكواريل منظر طبيعي/ اكسترا واقعية) مع لوحة تجريد فادي زيادة (الزمن). لا تستطيع اللوحتان العيش معاً، لا لأنهما لا ترغبان بالتعايش، بل لأنّهما لا تستطيعان التعايش، إلا بدفاتر المفكرات. لكل ذاتها. لكل أسلوبها. غير أن اللوحتين لا تمتلكان قوة دلالية واحدة. لا تمتلكان ماء واحداً وملحاً واحداً. هذا ضروري، إلا في معرض جماعي، يتوجه إلى جمهور محدد. لوحة ليلى كبه لوحة سرادق وطنية، تشرح الكتابة بالتراث، من إفادتها من التجارب التراثية. لوحة ماي ياسين (تشيللو) لوحة فنون مطبقة على قياسات الجاهز، أو هي ترجمة رؤية حتمية، لأنها تسبق الرؤى بالفنون الخاسرة. لوحة ندى طرابلسي، لوحة جمهور أول للفنون التشكيلية. الميكس ميديا في لوحة ربيع اندراوس، لا تتخطى أفخاخ الفنون الحديثة، وهي تستخدم ما يمتلك الفنان من إدراك بعيد عن إدراك المتخصصين. كل لوحة عالم. لوحة وجيه نحلة لوحة فنان تلوين، تبحث ألوانه في أمور القارة. عشرات الأسماء، بين مفاهيم التحرير ولعنات الانتقام من كل أمر فني. حربٌ تهدد بالاندلاع في كل لحظة، بين ذئبية البعض وصبيانية البعض الهائجة. عقل ساحة عند البعض، ومتاهة لدى آخرين. هنا، ما خفي من تجعدات الكون، وهناك عزف على قيثارات التشكيل. عصب الفكر بالفكرة، لا باللوحات الخاضعة إلى المسلمات أو الخارجة عليها. الفكرة بأن الهندسة المعمارية في صف اللوحات إلى جانب بعضها، سوف تتبعه تجارب ملفوفة بملاءات الخير التشكلية الندية. عقل رياضي في أول الأمر، ثم وقوف على نوافذ العين. لا تبرر القصيدة حضورها، ولو حجبها لبعض الوقت، بطن المحارة. لا سوية في المعيار. لا سوية منهجية. واقعية في جوارها تجريد، وواقعية سحرية وتعبيرية وترميز وتكعيب وتعريب. كل شيء. «معرض الفنون البصرية السادس» دعوة إلى الخروج من الخمول التشكيلي، خروج على الظلال، في الطريق إلى استبيان ضوء الشمس، على لوحة المتوسط. لوحة غنية بالأضواء. لا ينقص، إلا استخراجها. من «قصر الأونيسكو»، سينتقل المعرض إلى «مركز العزم الثقافي» في في طرابلس غداً ويستمرّ حتى السادس من تشرين الثاني (نوفمبر).